المُفَضّل بن المُهَلَّب بن أبي صُفرة

الأزديّ

فاتح شطر خراسان وما وراء النهر

اللواء الركن محمود شيت خطاب

رحمه اللّه تعالى

جمع وترتيب : المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

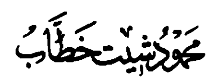
منشور في مجلة المورد العراقية– العدد4-المجلد 12 -ص 44 – 58

1404 هـ - 1983 م

المفضل بن المهلب بن ابي صفرة الازدي

فاتح شطر خراسان(١) وما وراء النهر(٢)

اللواء الركن



الجمهورية العراقية ـ بغداد

نسبه وايامه الاولى

هو ابو عثمان(٣) المفضل بن المهلب بن ابي صفرة الازدي ، وهو من ازد العتيك . أزد (دبا)(٤).

أبوه : المهلب بن ابي صفرة بن سراق(٥) بن صبيح(٦) بن كندى بن عمرو بن وائل بن الحارث بن العتيك بن الاسد(٧) بن عمران بن عمرو مزيقياء(٨) بن عامر بن ماء السماء(٩) بن حارثة بن امرىء القيس ابن ثعلبة بن مازن بن الازد الازدى العتكى(١٠) .

وامه : بهلة الهندية ام ولد ، ولدت المفضل واخاه عبدالملك(١١) .

ولم اجد نصا يذكر سنة ولادة المفضل ، وقد كان اصغر من اخيه يزيد بن المهلب الذي ولد سنة ثلاث وخمسين الهجرية(١٢) (٦٧٢ م) ، وأول ما ورد ذكره في حرب الخوارج بكرمان(١٣) سنة سبع وسبعين الهجرية(١٤) (٦٩٦ م) بطلا يشار اليه بالبنان ، فقال يصفه للحجاج الرجل الذي سيره المهلب الى الحجاج مبشرا بالنصر : « ... وكفاك بالمفضل نجدة .. »(١٥) .

---

(١) خراسان : بلاد واسعة تتاخم العراق من الغرب وافغانستان والهند من الشرق ، وتقع كرمان وسجستان الى جنوبها ، وتمتد من الشمال الى اقصى تخوم ايران ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٤٥ ـ ١٦٠) ومعجم البلدان (٤٠٧/٣) .

(٢) ما وراء النهر : ما وراء نهر جيحون ، فما كان في شرقية يقال له : ما وراء النهر ، وما كان في غربية يقال له : خراسان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٠/٧) والمسالك والممالك للاصطخري (١٦١) واثار البلاد (٥٥٧) وتقويم البلدان (٤٨٣ ـ ٥١٥) .

(٣) العقد الفريد (٤٢٩/٤) .

(٤) دبا : اسم موضع بين عمان والبحرين ، انظر التفاصيل في وفيات الاعيان (٤٣٩/٤) والمعارف (٣٩٩) ، وهي مدينة بعمان قديمة مشهورة لها ذكر في ايام العرب واخبارها ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٠/٤) .

(٥) ويقال : ابن سارق ، انظر الاستيعاب (١٦٩٢/٤) والاصابة (١٠٥/٧) .

(٦) في وفيات الاعيان (٤٣٢/٤) : ابن صبح ، وكذلك في جمهرة انساب العرب (٣٦٧) .

(٧) في الاصابة (١٠٥/٧) ووفيات الاعيان (٤٣٢/٤) : ابن الازد .

(٨) مزيقياء : لقب عمرو المذكور ، وكان من ملوك اليمن ، انظر وفيات الاعيان (٤٣٥/٤) .

(٩) في وفيات الاعيان (٤٣٩/٤) : عامر ماء السماء : لا عامر ابن ماء السماء ، كما ورد في اعلاه ، وقد لقب بماء السماء لجوده وكثرة نفعه ، فشبه بالغيث .

(١٠) اسد الغابة (٢٣١/٥) ، وانظر الاصابة (٢٠٣/٣) و (١٠٥/٧) والاستيعاب (١٦٩٢/٤) وطبقات ابن سعد (١٠١/٧) و (١٢٩/٧) ، ووفيات الاعيان (٤٣٢/٤) والمعارف (٣٩٩) والبلاذري (٣٠٧) وسرح العيون (١٠٢) والتنبيه والاشراف (٣٢٠) ، واسم أبي صفرة : ظالم ، انظر جمهرة انساب العرب (٣٦٧) .

(١١) الطبري (٣٩٥/٦) .

(١٢) تاريخ خليفة بن خياط (٢٠٦/١) ووفيات الاعيان (٣٤٩/٥) .

(١٣) كرمان : ولاية مشهورة ذات بلاد وقرى واسعة ، انظر معجم البلدان (٢٣١/٧) ، وانظر حدودها في المسالك والممالك للاصطخري (٩٧ ـ ١٠٠) .

(١٤) ابن الاثير (٤٤٠/٤) .

(١٥) ابن الاثير (٤٤١/٤) .

ولا يمكن ان يشهد المفضل مثل تلك الحرب الضروس قبل ان يبلغ العشرين من عمره ، قبل ذلك بقليل . او بعد ذلك بقليل ، اي ان سنة ولادته هي حوالي سنة سبع وخمسين الهجرية (٦٧٦ م).

وشب المفضل وترعرع في كنف ابيه المهلب الذي تولى القيادة في وقت مبكر من حياته على عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة احدى وثلاثين الهجرية (٦٥١ م) ، واستمر قائدا وواليا حتى توفاه الله سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) وهو علىخراسان عائدا منغزو بلاد ماوراء النهر[١٦]. وقد كان المهلب من ابرز قادة الفتح برز في الفتوح، وبرز في اخماد الفتن الداخلية ، فكان المفضل مع ابيه منذ سنة سبع وسبعين الهجرية تقريبا في معارك الفتح ومعارك اخماد الفتن الداخلية منذ اصبح قادرا على حمل السلاح واستعماله ، فاكتسب خبرة عملية في القيادة والادارة في محيط ابيه المهلب المتميز بالكفاية العالية والشجاعة والحنكة ، مما كان له اثر كبير في حياته قائدا واداريا .

ويبدو ان المفضل كان من ابرز اعوان ابيه المهلب في حروبه بخاصة ، اذ لم يرد ذكر لتوليه المناصب الادارية في حياة المهلب ، ولعل صغر سنه حجبه عن تولي تلك المناصب ، لان المهلب ولى المغيرة ابنه الاكبر اولا ، فلما توفى المغيرة ولى يزيد ابنه على خراسان خلفا للمغيرة بن المهلب ونائبا عن المهلب ، لانه اصبح بعد وفاة المغيرة اكبر ابناء المهلب .

ومن الواضح أن اعباء المهلب القتالية ، وانغماس ولده المفضل في معاونة ابيه ، حرمت المفضل من التفرغ لاستيعاب العلوم النظرية السائدة في ايامه : علوم القرآن والحديث واللغة والادب والتاريخ ، فلم نجد له ذكرا في مجال تلك العلوم ، ولكنه لم يحرم نهائيا من تعلم تلك العلوم ، ولعل مجالس والده الزاخرة بالعلماء كانت خير معلم له ، وهي مدرسة عملية لا تقل اهمية عن المدارس النظرية ، بل قد تكون اجدى منها واكثر نفعا .

ولما حضرت الوفاة المهلب ، دعا المهلب من حضره منولده ومنهم المفضل، ودعا بسهام فحزمت وقال : (اترونكم كاسريها مجتمعة ؟) قالوا : لا قال : « اترونكم كاسريها متفرقة ؟ » ، قالوا : « نعم » ، قال : « فكهذا الجماعة ، فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم ، فان صلة الرحم تنسئى في الاجل وتثرى المال ، وتكثر العدد ، وانهاكم عن القطيعة ، فأن القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلة ، فتحابوا وتواصلوا واجمعوا امركم ولا تختلفوا ، وتباروا تجتمع اموركم . ان بنى الام يختلفون ، فكيف ببنى العلات[١٧] ! وعليكم بالطاعة والجماعة ، وليكن فعالكم افضل من قولكم ، فانى احب للرجل ان يكون لعمله فضل على لسانه ، واتقوا الجواب وزلة اللسان ، فأنالرجل تزل قدمه فينتعش من زلته ، ويزل لسانه فيهلك . اعرفوا لمن يغشاكم حقه ، فكفى بغدو الرجل ورواحه اليكم تذكرة له ، واثروا الجود على البخل ، واحبوا العرب ، واصطنعوا العرف ، فأة الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك ، فكيف الصنيعة عنده !! عليكم في الحرب بالاناة والمكيدة ، فانها انفع في الحرب من الشجاعة ، واذا كان اللقاء نزل القضاء ، فأن اخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه قيل : اتى الامر من وجهه ، ثم ظفر فحمد ، وان لم يظفر بعد الاناة قيل : ما فرط ولا ضيع ، ولكن القضاء غالب. وعليكم بقراءة القرآن ، وتعليم السنن ، وادب الصالحين ، واياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم . وقد استخلفت عليكم يزيد ، وجعلت حبيبا على الجند حتى يقدم بهم على يزيد ، فلا تخالفوا يزيد » ، فقال المفضل : « لو لم تقدمه لقدمناه »[١٨] .

والحق ان المهلب وحده ، كان مدرسة كاملة، ليس بالنسبة لبنيه وآل بيته حسب ، بل بالنسبة للذين يتصلون به ويشهدون مجالسه ومعاركه وتصريفه للامور في حياته ، ولا تزال سيرته واقواله اسوة حسنة للذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ، فهو يعلم العقل ويلقن العلم ويأمر بالحكمة ويوصي بالدهاء ويدرب على فنون القتال واساليب الادارة ، وحسب المفضل ان يكون ابن ابيه وتلميذه النجيب ، ليكون على قدر واف من العلم والعقل والدهاء ، ومعالجة القضايا الادارية والمعضلات العسكرية .

الفاتح

في سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤ م) ،

---

(١٦) الطبري (٣٥٠/٦) .

(١٧) العلات : جمع العلة ، وهي الضرة . وبنو العلات : بنو رجل واحد من امهات شتى .

(١٨) الطبري (٣٥٤/٦ — ٣٥٥) وابن الاثير (٤٧٥/٤ — ٤٧٦)، وانظر وفيات الاعيان (٣٣٠/٥ — ٣٣١) .

عزل الحجاج عن خراسان يزيد بن المهلب وولى مكانه اخاه المفضل[١٩] .

وغزا المفضل في هذه السنة (باذغيس)[٢٠] فاستعاد فتحها ، وكانت قد انتقضت ، واصاب مغنما ، فقسمه بين الناس ، واصاب كل رجل منهم ثمانمائة درهم .

ثم غزا (اخرون) و (شومان)[٢١] ، فظفر وغنم ، وقسم ما اصاب بين الناس .

ولم يكن للمفضل بيت مال ، فكان يعطي الناس كلما جاءه شيء ، وان غنم شيئا قسمه بينهم .

وهكذا استعاد المفضل فتح منطقتين واسعتين من خراسان وبلاد ما وراء النهر ، في مدة زمنية قصيرة جدا ، اذ لم يبق على خراسان غير تسعة اشهر فقط[٢٢] ، ثم عزل بقتيبة بن مسلم الباهلي[٢٣] .

ولعل استطاعة المفضل استعادة هاتين المنطقتين الواسعتين في خراسان وبلاد ما وراء النهر بسرعة خير دليل على قابليته القيادية الفذة .

في الاقتتال الداخلي

١ ــ في حرب الخوارج

كان المهلب بن ابى صفرة الازدي ، من ابرز قادة الدولة الذين حاربوا الخوارج وانتصروا عليهم ، ان لم يكن ابرز القادة على الاطلاق ، وكان المفضل وسائر أبناء المهلب من المع المقاتلين الذين أعانوا اباهم المهلب على تحمل أعبائه القتالية والقيادية جنودا وقادة مرءوسين لابيهم على التشكيلات التعبوية ، فعاونوه بصدق وحماسة في مختلف ميادين القتال .

واول ما ورد ذكر المفضل في حرب الخوارج ، كان في حوادث سبع وسبعين الهجرية (٦٩٦ م) ، فقد كانت هناك حرب بين المهلب والخوارج في (كرمان) ، انتصر فيها المهلب على الخوارج انتصارا مؤزرا .

وبعث المهلب الى الحجاج بن يوسف الثقفي احد رجاله مبشرا بالنصر . فلما دخل على الحجاج أخبره عن جيش المهلب وعن الخوارج وذكر حروبهم واخبره عن أبناء المهلب فقال : « المغيرة فارسهم وسيدهم ، وكفي بيزيد فارسا شجاعا ، وجوادهم وسخيهم قبيصة ، ولا يستحي الشجاع أن يفر من مدركة ، وعبدالملك سم ناقع ، وحبيب موت ذعاف ، ومحمد ليث غاب ، وكفاك بالمفضل نجدة » . فقال الحجاج : « فأيهم كان أنجد ؟ » فقال « كانوا كالحلقة المفرغة ، لا يعرف طرفها » ، فاستحسن الحجاج قوله ، وكتب الى المهلب يشكره ، ويأمره ان يولي كرمان من يثق به . ويجعل فيها من يحميها ويقدم اليه[٢٤] .

وفي معارك كرمان ، اخرج المهلب بنيه ، كل ابن له على كتيبة من الكتائب ، واخرج الناس على راياتهم .

وجاء موفد الحجاج البراء بن قبيصة الذي بعثه الى المهلب ليراقب بلاءه وبلاء بنيه عن كثب في حرب الخوارج ، فوقف على تل قريب من ساحة المعركة حيث يشاهد الاقتتال لا تخفى عليه منه خافية . واخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال ، فيقتتلون اشد اقتتال رآه الناس من صلاة الغداة الى انتصاف النهار ، ثم انصرفوا .

وجاء البراء بن قبيصة الى المهلب ، فقال له : « لا والله ، ما رأيت كبنيك فرسانا قط ، ولا كفرسانك من العرب فرسانا قط ، ولا رايت مثل قوم يقاتلونك قط ، صبر ولا اباس ، انت والله المعذور » .

حتى اذا كان عند العصر ، خرج المهلب الى الخوارج بالناس وبنيه في كتائبهم ، فقاتلوا كقتالهم اول مرة[٢٥] .

وقدم عبدالرحمن بن سليم الكلبي على المهلب، فرأى بنيه قد ركبوا عن آخرهم ، فقال : « آنس الله الاسلام بتلاحقكم[٢٦] ! اما والله ، لئن لم تكونوا اسباط نبوة ، انكم لاسباط ملحمة »[٢٧] .

---

(١٩) الطبري (٣٩٣/٦) وابن الاثير (٥٠٢/٤) .

(٢٠) باذغيس : اقليم يشمل على قرى من اعمال هراة ومرو الروذ ، قصبتها بون وبامين بلدتان متقاربتان ، وهي ذات خير ورخص ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣١/٢) .

(٢١) اخرون : لا ذكر لها في كتب البلدان المتيسرة لدي ، وشومان : بلد الصغانيان ، بما وراء النهر ، انظر معجم البلدان (٣١٠/٥) .

(٢٢) الطبري (٣٩٧/٦)

(٢٣) الطبري (٤٢٤/٦) .

(٢٤) ابن الاثير (٤٤٠/٤ ــ ٤٤١) .

(٢٥) الطبري (٣٠٢/٦) وابن الاثير (٤٣٧/٤ ــ ٤٣٨) .

(٢٦) تلاحقت المطايا ونحوها : ادرك بعضها بعضا ، والتصق به وانضم اليه .

(٢٧) وفيات الاعيان (٣٢٦/٥) ، والملحمة : الحرب الشديدة.

وسأل المهلب البراء بن قبيصة : « كيف رأيت ؟ » ، قال : « رأيت قوما والله ما يعينك عليهم الا الله » ثم انصرف الى الحجاج فأتاه بعذر المهلب ، واخبره بما رأى .

وكتب المهلب الى الحجاج : « اتاني كتاب الامير اصلحه الله . واتهامه اياي في هذه الخارجة المارقة . وامرني الامير بالنهوض اليهم ، واشهاد رسوله ذلك . وقد فعلت ، فليسأله عما رأى ! واما انا فوالله لو اقدر على استئصالهم وازالتهم عن مكانهم ثم امسكت عن ذلك لقد غششت المسلمين ، وما وفيت لامير المؤمنين ، ولا نصحت للامير ـ اصلحه الله ـ فمعاذ الله ان يكون هذا من رايي ، ولا مما أدين الله به ، والسلام » .

ثم ان المهلب قاتلهم بها ثمانية عشر شهرا ، فكبدهم خسائر فادحة ، وكبدوه خسائر فادحة ايضا ، حتى نشب الخلاف فيما بينهم ، فتركهم المهلب يقتتلون شهرا لا يحركهم .

واخيرا استطاع المهلب أن ينتصر عليهم بعد عناء شديد وصبر جميل وصراع مرير(٢٨) .

لقد خاض المهلب غمار الاقتتال في حرب الخوارج ، وقاتل المفضل بامرة ابيه في هذه الحرب الضروس . وكان له في نتائج ذلك الاقتتال أثر حميد .

٢ ـ في قتال الهاشمي

أعلن عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث الثورة على الحجاج والدولة في العراق سنة احدى وثمانين الهجرية(٢٩) (٧٠١ م) .

واقبلت سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠٢ م) فاشتد الاقتتال بين الحجاج وابن الاشعث ، وتخلى ابن الاشعث عن البصرة منسحبا الى الكوفة ، فاجتمع من بقي في البصرة مع عبدالرحمن بن عباس ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب الهاشمي ، فقاتل بهم الحجاج خمس ليال اشد قتال رآه الناس ثم انصرف فلحق بابن الاشعث ، وتبعه طائفة من اهل البصرة(٣٠) .

واستمرت الحرب بين الحجاج وابن الاشعث سنة ثلاث وثمانين الهجرية (٧٠٣ م) سجالا .

واخيرا انتصر الحجاج على ابن الاشعث(٣١) ، فغادر العراق الى سجستان اولا والى كرمان منسحبا من سجستان ، واخيرا سار ابن الاشعث مع (رتبيل) الى بلاده ، فأنزله واكرمه وعظمه(٣٢) .

وكان كثير من اصحاب ابن الاشعث من الرءوس والقادة الذين لم يقبلوا امان الحجاج ونصبوا له العداوة في كل موطن قد تبعوا ابن الاشعث ، فبلغوا سجستان في نحو ستين الفا ونزلوا على (زرنج)(٣٣) يحاصرون من بها ، وكتبوا الى ابن الاشعث يستدعونه ، فاتاهم ... وكان يصلي بأصحاب ابن الاشعث قبل قدومه عبدالرحمن ابن عباس الهاشمي ، واستولوا على (زرنج) .

وسار بن الاشعث الى (هراة)(٣٤) ، فهرب من اصحابه عبيدالله بن عبدالرحمن بن سمرة القرشي في الفين، فقال لهم ابن الاشعث : « اني كنت في مامن وملجأ ، فجاءتني كتبكم : ان اقدم ! فأن أمرنا واحد ، فلعلنا نقاتل عدونا ، فاتيتكم فرايتم ان امضى الى خراسان ، وزعمتم انكم تجتمعون الي ، وانكم لا تتفرقون ، وهذا عبيدالله قد صنع ما رايتم ، فاصنعوا ما بدا لكم ، أما أنا فمنصرف الى صاحبي الذي اتيت من عنده » .

وسار عبدالرحمن الهاشمي الى (هراة) ، فلقوا فيها الرقاد الازدي ، فقتلوه .

وارسل يزيد بن المهلب الى الهاشمي : « قد كان لك في البلاد متسع ومن هو أهون مني شوكة ، فارتحل الى بلد ليس فيه سلطان ، فأني اكره قتالك ، وان اردت مالا أرسلت اليك » .

ولكن الهاشمي اعاد الجواب : « إنا ما نزلنا لمحاربة ولا لمقام ، ولكننا اردنا ان نريح ثم نرحل عنك ، وليس بنا الى المال حاجة » .

واقبل الهاشمي على الجباية ، وبلغ ذلك يزيد، فقال : « من اراد أن يريح ثم يرتحل ، لم يجب الخراج ، فلك ما جبيت وزيادة ، فاخرج عني فأني اكره قتالك » .

(٢٨) الطبري (٣٠٢/٦ ـ ٣٠٨) .

(٢٩) الطبري (٣٣٦/٦) وابن الاثير (٤٦٢/٤) .

(٣٠) الطبري (٣٤٣/٦) وابن الاثير (٤٦٧/٤) ، وانظر تفاصيل هذه المعارك في الطبري (٣٤٢/٦ ـ ٣٥٠) وابن الاثير (٤٦٧/٤ ـ ٤٧٢) .

(٣١) انظر التفاصيل في الطبري (٣٥٧/٦ ـ ٣٦٨) وابن الاثير (٤٧٨/٤ ـ ٤٨٣) .

(٣٢) الطبري (٣٦٨/٦ ـ ٣٦٩) وابن الاثير (٤٨٤/٤ ـ ٤٨٥) .

(٣٣) زرنج : مدينة هي قصبة سجستان ، وسجستان اسم الكورة كلها ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٥/٤ ـ ٣٨٦) .

(٣٤) هراة : مدينة عظيمة مشهورة من امهات مدن خراسان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٥١/٨ ـ ٤٥٢) ، وهي من اكبر مدن افغانستان في الوقت الحاضر .

وابى الهاشمي الا القتال ، وكاتب جند يزيد يستميلهم ويدعوهم الى نفسه ، فعلم يزيد بذلك فقال : « جل الامر عن العتاب » .

وقدم يزيد بن المهلب اخاه المفضل في اربعة الاف ، ويقال : في ستة الاف ، ثم اتبعه في اربعة الاف ، ثم قدم يزيد على راس جيشه الى منطقة (هراة) .

وقال يزيد للمفضل : « قدم خيلك » ، فتقدم بها المفضل ، فلم يكن بينهم كثير قتال حتى تفرق اصحاب الهاشمي عنه ، فصبر وصبرت طائفة معه ، ثم انهزموا .

وامر يزيد اصحابه بالكف عن مطاردة المنهزمين واخذوا ما كان في معسكرهم واسروا منهم اسرى .

ولحق الهاشمي بالسند ، فانصرف يزيد بن المهلب ومعه اخوه الى (مرو) مقره في خراسان وبعث بالاسرى الى الحجاج عدا من كان منهم من الازد او من كان له عليه او على آل المهلب فضل ومعروف .

ولما وصل الاسرى الى الحجاج ، قتلهم بلسانه تانيبا وتقريعا ، قبل ان يقتلهم بسيفه ، فكان لسانه اشد وقعا عليهم من سيفه واشد تاثيرا فيهم قبل ان يفارقوا الحياة[٣٥] .

وقد كان للمفضل في هذا الاقتتال اثر كبير . فقد سارع بقواته ولحقوا الهاشمي ورجاله ، واخذ عليهم المداخل والمخارج ، وبذلك سهل مهمة يزيد ابن المهلب في القضاء عليهم بسهولة ويسر .

كما انه كان قائد الخيل في اثناء الاقتتال ، فكانت سرعته الخاطفة في الهجوم على الهاشمي واصحابه ، سببا في هزيمة اكثر رجال الهاشمي بدون مقاومة تذكر ، ومن ثم هزيمة الهاشمي ومن ثبت معه في الاقتتال بعد وقت قصير من نشوب الاقتتال .

وقد كانت سرعة تقدم خيل المفضل بشكل خاطف ، عاملا من أهم عوامل انهيار معنويات الهاشمي ورجاله ، فهرب رجاله من جراء انهيار معنوياتهم ، وثبت قسم قليل منهم خوفا من عار الهزيمة ، ولكن ثباتهم لم يدم طويلا ، فهربوا كما هرب أصحابهم من قبل ، ووقع بعضهم في الاسر ، لانهم عجزوا عن الهرب لتطويقهم او لجرح قسم منهم .

ولعل الفضل الاكبر في انتصار يزيد بن المهلب على الهاشمي ورجاله في معركة (هراة) يعود الى اخيه المفضل قائدا .

٣ - في حرب ابن خازم

ا . غادر سلم بن زياد[٣٦] خراسان بعد موت يزيد بن معاوية بن ابى سفيان سنة اربع وستين الهجرية[٣٧] (٦٨٣ م) . فلما وصل الى نيسابور لقيه عبدالله بن خازم[٣٨] ، فقال : « من وليت خراسان ؟» ، فلما علم انه ولى المهلب بن ابى صفرة الازدي وهو من اليمن . وسليمان بن مرثد احد بنى قيس بن ثعلبة بن ربيعة واوس بن ثعلبة بن زفر ، قال له : « اما وجدت في المصرين من تستعمله حتى فرقت خراسان بين بكر بن وائل واليمن ! اكتب لي عهدا على خراسان » . فكتب له عهدا ، واعطاه سلم مئة الف درهم[٣٩] .

وعبدالله بن خازم من سليم . وهي من مضر .

واشتبك عبدالله بن خازم في صراع مرير بينه وبين ربيعة[٤٠] وبنى تميم[٤١] ، وكان على خراسان لعبدالله بن الزبير .

وبعد مقتل مصعب بن الزبير في العراق سنة احدى وسبعين الهجرية[٤٢] (٦٩٠ م) ، كتب عبدالملك بن مروان الى عبدالله بن خازم ، يدعوه الى البيعة له ويطعمه خراسان سبع سنين ، فرفض عبدالله بن خازم عرض عبدالملك ، وتمسك بولائه لعبدالله بن الزبير[٤٣] .

وكتب عبدالملك الى قسم من الطامعين بولاية خراسان ممن كانوا فيها ، فتكالبوا على ابن خازم وقتلوه[٤٤] ، وكان ذلك سنة اثنتين وسبعين الهجرية (٦٩١ م) .

---

(٣٥) انظر التفاصيل في الطبري (٣٦٩/٦ - ٣٨٠) وابن الاثير (٤٨٤/٤ - ٤٨٧) وابن خلدون (١١٢/٣ - ١١٤) ، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٢٨٣/١) و (٢٨٤/١) .

(٣٦) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح بلاد ما وراء النهر .

(٣٧) ابن الاثير (١٢٥/٤) .

(٣٨) هو عبدالله بن خازم بن اسماء بن الصلت بن حبيب بن حارثة بن هلال بن سماك بن عوف بن امرىء القيس من سليم .

(٣٩) ابن الاثير (١٥٥/٤) .

(٤٠) انظر التفاصيل في ابن الاثير (١٥٧/٤) .

(٤١) انظر التفاصيل في ابن الاثير (٢٠٧/٤ - ٢١٠) .

(٤٢) ابن الاثير (٣٢٣/٤) .

(٤٣) ابن الاثير (٣٤٥/٤) .

(٤٤) ابن الاثير (٣٤٥/٤ - ٣٤٦) .

ولما قتل ابن خازم من قتل من بنى تميم ، تفرق اكثر من كانوا معه منهم ، فخرج الى نيسابور ، وخاف بنى تميم على أهله وذوى قرباه وامواله ، فقال لابنه موسى : « خذ ثقلى ، واقطع نهر بلخ ، حتى تلتجيء الى بعض الملوك والى حصن تقيم فيه » . فرحل موسى عن (مرو) في عشرين ومائتي فارس ، ثم اجتمع اليه تتمة اربعمائة ، وانضم اليه قوم من بنى سليم .

واتى موسى (زم)[٤٥] ، فقاتله اهلها ، فظفر بهم واصاب مالا .

وقطع النهر ، واتى (بخارى) ، فسأله صاحبها أن يلجأ اليه ، فابى . وخافه صاحب بخارى وقال : « رجل فاتك واصحابه مثله ، فلا آمنه » ، ولكنه وصل موسى بمال ، فرحل عنه .

واتى موسى سمرقند ، فاقام بها ، واكرمه ملكها طرخون ، واذن له بالمقام ، فاقام مدة من الزمن ، ولكن بعض أصحابه تصرفوا تصرفا اغضب عليهم طرخون ، فأمر موسى ان يخرج من سمرقند.

واتى (ركش)[٤٦] . فضعف صاحبها عنه . فاستنصر طرخون ، فأتاه . وخرج موسى اليه وقد اجتمع معه سبعمائة فارس ، فقاتلهم حتى أمسوا ، فتحاجزوا . ورحل موسى عن (ركش) بعد ان جرح كثير من رجاله .

وسار موسى حتى اتى (ترمذ) [٤٧] وبها حصن يشرف على جانب النهر ، فنزل موسى خارج الحصن . وسأل ملك ترمذ (ترمذ شاه) أن يدخله حصنه ، فأبى . واهدى موسى لملك ترمذ ولاطفه حتى حصل بينهما مودة ، فخرج وتصيد معه .

وصنع صاحب ترمذ طعاما ، واحضر موسى ومئة من اصحابه ليأكلوا معه ، فدخلوا الحصن واكلوا ، فلما فرغوا من طعامهم قال صاحب ترمذ لموسى : « اخرج ! » فقال : « لا أخرج حتى يكون الحصن بيتي او قبري » .

ونشب القتال بين الجانبين ، فقتل موسى منهم عدة رجال وانهزم الباقون ، واستولى على الحصن ومدينة ترمذ واخرج ملكها منها ، ولم يعرض له ولا لاصحابه بسوء .

واتى موسى بترمذ جمع من اصحاب أبيه ، فقوى بهم ، فكان يخرج بين الحين والاخر ، ويغير على ما حوله .

ب — وولى بكير بن وساج خراسان ، فلم يعرض له . ثم قدم امية بن عبدالله بن خالد بن أسيد الاموى[٤٨] خراسان . فوجه الى موسى رجلا من خزاعة في جمع كثير ، فقتل الخزاعي وتفرق جيشه ، واتى بعضهم موسى مستأمنا ، فآمنه ، ولم يوجه امية احدا بعد ذلك[٤٩] .

وعزل امية . وقدم المهلب بن ابى صفرة[٥٠] اميرا على خراسان ، فلم يتعرض لموسى ، وقال لبنيه : « اياكم وموسى ، فانكم لا تزالون ولاة خراسان ، ما دام هذا الثبط[٥١] بمكانه ، فان قتل فأول طالع عليكم امير على خراسان من قيس » .

ولما مات المهلب . وولى يزيد بن المهلب[٥٢] ، لم يتعرض لموسى ايضا .

واشتبك موسى مع العرب والعجم في قتال مرير ، في ايام يزيد بن المهلب ، فانتصر عليهم انتصارات باهرة . فكان اهل خراسان يقولون : ما راينا مثل موسى ولا سمعنا به ، قاتل مع أبيه سنتين ، ثم خرج يسير في بلاد خراسان ، فأتى ملكا فغلب على مدينته وأخرجه منها ، وسار الجنود من العرب والترك اليه ، وكان يقاتل العرب اول النهار والترك آخر النهار !

واقام موسى بالحصن خمس عشرة سنة ، وصار ما وراء النهر لموسى لا ينازعه فيه أحد .

فلما عزل يزيد بن المهلب وولى المفضل أراد ان يحظى عند الحجاج بقتال موسى بن عبدالله ابن خازم ، فسير عثمان بن مسعود اليه في جيش ، وكتب الى مدرك بن المهلب وهو بـ (بلخ) يامره بالسير معه ، فعبر نهر جيحون بخمسة عشر الفا ، وكتب الى (السبل) ملك الختل وطرخون ملك الصغد ، فقدموا عليه ، وحصروا موسى وضيقوا عليه وعلى أصحابه .

(٤٥) زم : بليدة على طريق جيحون من ترمذ وآمل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٤٠٥) .

(٤٦) كش : مدينة فيما وراء النهر ، انظر التفاصيل في تقويم البلدان (٤٩٠) ، وهي قرب سمرقند ، انظر معجم البلدان (٧/٢٥٠) .

(٤٧) ترمذ : مدينة مشهورة من امهات المدن على جيحون ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٨٢) وتقويم البلدان .

البلدان (٥٠٠) واحسن التقاسيم (٢٩١) .

(٤٨) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح ما وراء النهر .

(٤٩) انظر التفاصيل في ابن الاثير (٤/٥٠٥ — ٥٠٨) .

(٥٠) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح ما وراء النهر .

(٥١) الثبط : ثبط : ضعف وثقل ، وحمق في عمله ، فهو ثبط .

(٥٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح ما وراء النهر .

ومكث موسى شهرين في ضيق ، وقد خندق عثمان عليه وحذر البيات ، فقال موسى لاصحابه : « اخرجوا بنا ، حتى متى نصبر ! فأجعلوا يومكم معهم اما ظفرتم واما قتلتم ، واقصدوا الترك » .

وخرج موسى بعد أن خلف النضر بن سليمان ابن عبدالله بن خازم في المدينة ، وقال له : « ان قتلت فـلا تدفعن المدينـة الى عثمان وادفعها الى مدرك بن المهلب » .

ولما خرج جعل ثلث اصحابه بازاء عثمان ، وقال : « لا تقاتلوا الا ان يقاتلكم » . وقصد طرخون واصحابه ، فصدقوهم القتال ، فانهزم طرخـون واخذوا عسكرهم .

وزحف الترك والصغد ، فحالوا بين موسى والحصن ، فقاتلهم ، فعقروا فرســه ، فسقط ارضا .

ونهض من سقطته ، وحمله احد مواليه على فرسه ، وقد وثب ليمتطي فرس مولاه رديفـا ، فلمحه عثمان حين وثب ، فقال : « وثبة موسى ورب الكعبة ! » ، ثم قصد الى موسى ، فعقرت دابته فسقط هو ومولاه ، فقتلوه .

ونادى منادي عثمان : « من لقيتموه فخذوه اسيرا ، ولا تقتلوا احدا » ، فقتل ذلك اليوم من الاسرى خلقا كثيرا من العرب خاصة ، فكان يقتل العربي ويضرب المولى ويطلقه ، وكان فظا غليظا .

وبقيت مدينة (ترمذ) بيد النضر بن سليمان ابن عبدالله بن خازم ، فلم يدفعها الى عثمان وسلمها الى مدرك بن المهلب وآمنه ، فسلمها مدرك الـى عثمان .

وكتب المفضل الى الحجاج بقتـل موسى ، فقال : «العجب منه ! اكتب اليه بقتل ابن سمرة»(٥٣) فيكتب الى انه لمآبه ، ويكتب الى انه قد قتل موسى ابن عبدالله خازم !! » ، ولم يسره قتل موسى ، لانه من قيس !

وكان قتل موسى ســنة خمس وثمانـين الهجرية(٥٤) (٧٠٤ م) بعد أن سيطر على بلاد مـا وراء النهر خمس عشرة سنة سيطرة كاملة لا ينازعه فيها منازع خطير ، وبذلك مهد المفضل لقتيبة بن مسلم ان يفتح ما شاء في بلاد ما وراء النهر ، فكان قتيبة بحق حسنة من حسنات المفضل بلا مراء .

(٥٣) ابن سمرة : هو عبيدالله بن عبدالرحمن بن سمرة القرشي انظر الطبري (٣٧٠/٦) .

(٥٤) انظر التفاصيل في الطبري (٣٩٨/٦ – ٤١٢) وابن الاثير (٥٠٥/٤ – ٥١٣) .

٤ – في ثورة المهالبة

أ – حبس عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه سنة مئة الهجرية (٧١٧ م) يزيد بن المهلب في حصن (حلب)(٥٥) .

وفي سنة احدى ومئة الهجرية (٧١٩ م) هرب يزيد من ســـجن (حلب) ، وانطلق الـــى العراق(٥٦) .

وكان عمر بن عبدالعزيز يحتضر حين هــرب يزيد من سجنه ، فلما مات بويع يزيد بن عبدالملك في اليوم الذي مات فيه عمر ، فكتب يزيد الـــى عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطـاب عامله على الكوفة . والى عدي بن ارطاة عامله على البصرة ، يأمرهما بالتحرز من يزيـــد بن المهلب ويعرفهما هربه ، وامر عديا أن يأخذ من بالبصرة من آل المهلب . فأخذهم وحبسهم : وفيهم : المفضل ، وحبيب . ومروان أبناء المهلب .

واستطاع يزيد بن المهلب بعد مقاومة طفيفة السيطرة على البصرة ، واطـلاق سراح اخوتـــه المسجونين في سجنها ومنهم المفضل ، وسجن امير البصرة الذي سجن اخوته وهو عدي بن ارطاة .

وجهز يزيد بن عبدالملك اخـاه مسلمة بـن عبدالملك وابن اخيه العباس بن الوليد بن عبدالملك في سبعين الف مقاتل من أهل الشام وجزيرة ابن عمر، وقيل : كانوا ثمانين الفا ، فساروا الى العراق .

ثم ان يزيد بن المهلب غادر البصرة . ونـزل مدينة (واسط) واقام بها اياما يسيرة وخرجـت سنة احدى ومئة الهجرية(٥٧) (١٧٩ م) .

وجاءت سنة اثنتين ومئة الهجرية (٧١٩ م) ، فسار يزيـد بن المهلب عن واســط حتـى نـزل (العقر)(٥٨) .

واقبل مسلمة بن عبدالملك يسير على شاطىء

(٥٥) انظر التفاصيل في الطبري (٥٥٦/٦ – ٥٥٧) وابن الاثير (٤٨/٥ – ٤٩) ، وانظر البدء والتاريخ (٤٦/٦ – ٤٧) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٢٥/١) و (٣٢٨/١) وابن خلدون (١٦٢/٣ – ١٦٦) ووفيات الاعيان (٣٢٢/٥ – ٣٢٣) و (٢٤٣/٥ – ٢٤٤) .

(٥٦) انظر التفاصيل في الطبري (٥٦٤/٦ – ٥٦٥) وابن الاثير (٥٧/٥ – ٥٨) وابن خلدون (١٦٦/٣) .

(٥٧) انظر التفاصيل في الطبري (٥٧٨/٦ – ٥٨٩) وابن الاثير (٧١/٥ – ٧٧) وابن خلدون (١٦٦/٣ – ١٦٩) وخلاصة الذهب المسبوك (٢٦) .

(٥٨) العقر : عقر بابل ، قرب كربلاء من الكوفة ، انظـر التفاصيل في معجم البلدان (١٦٤/٦ – ١٦٥) .

الفرات الى (الانبار)[59] وعقد عليها الجسر ، فعبر وسار حتى نزل على ابن المهلب .

واتى الى يزيد بن المهلب ناس من اهل الكوفة كثير ومن الثغور . فبعث على من خرج اليه من اهل الكوفة وربع اهل المدينة عبدالله بن سفيان بن يزيد بن المغفل الازدي ، وعلى ربع مذحج وأسد النعمان بن ابراهيم بن الاشتر ، وعلى كندة وربيعة محمد بن اسحق بن الاشعث ، وعلى تميم وهمدان حنظلة بن عتاب بن ورقاء التميمي ، وجمعهم جميعا مع المفضل .

وخرج مسلمة بن عبدالملك . فعبأ جنود الشام ، ثم قرب من يزيد بن المهلب ، وجعل على ميمنته جبلة بن مخرامة الكندي ، وعلى ميسرته الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي .

وجعل العباس بن الوليد على ميمنته سيف ابن هانىء الهمداني ، وعلى ميسرته سويد بن القعقاع التميمي .

وكان مسلمة بن عبدالملك على قوات الدولة .
وخرج يزيد بن المهلب ، وعلى ميمنته حبيب ابن المهلب ، وعلى ميسرته المفضل .

وانهزم معظم اصحاب يزيد بن المهلب ، فقاتل يزيد قتالا بطوليا حتى قتل .

ولما قتل يزيد ، كان المفضل يقاتل اهل الشام وما يدري بقتل يزيد ، وكان كلما حمل على الناس انكشفوا ، ثم يحمل حتى يخالطهم .

واقتتلوا ساعة ، فانهزمت ربيعة ، فاستقبلهم المفضل يناديهم : « يا معشر ربيعة ! الكرة ... الكرة ...! والله ما كنتم بكشف ولا لئام ولا لكم هذه بعادة ، فلا يؤتين أهل العراق من قبلكم ، فدتكم نفسي ! » ، فرجعوا اليه يريدون الحملة ، فقيل له : ما نصنع ههنا ! لقد قتل يزيد وحبيب ومحمد ، وانهزم الناس منذ طويل ! فتفرق الناس عنه ، ومضى المفضل الى (واسط) ، فما كان من العرب اضرب بسيفه ولا احسن تعبية للحرب ، ولا اغشى للناس منه[60] .

وقيل : بل اتاه اخوه عبدالملك ، وكره أن يخبره بقتل يزيد فيستقتل . فقال له : « ان الامير قد انحدر الى واسط » ، فانحدر المفضل بمن بقي معه من ولد المهلب الى واسط ، فلما علم بقتل يزيد حلف انه لا يكلم عبدالملك ابدا ، فما كلمه حتى قتل. وكانت عينه أصيبت بالحرب ، فقال : « فضحني عبدالملك ، ما عذري اذا رآني الناس فقالوا : شيخ اعور مهزوم ! الا صدقني فقتلت ؟ » ، ثم قال :

ولا خير في طعن الصناديد بالقنا
ولا في لقاء الحرب بعد يزيد

ب ـ واجتمع آل المهلب بالبصرة . فأعدو السفن وتجهزوا للركوب في البحر ، وكان يزيد بن المهلب بعث وداع بن حميد الازدي على (قندابيل)[61] اميرا وقال له : « انى سائر الى هذا العدو ، ولو لقيتهم لم ابرح العرصة حتى يكون لي او لهم ، فأن ظفرت اكرمتك . وان كانت الاخرى كنت بقندابيل حتى يقدم عليك اهل بيتي فيتحصنوا بها حتى يأخذوا لانفسهم امانا ، وقد اخترتك لهم من بين قومي ، فكن عند أحسن ظني » ، واخذ عليه العهود ليناصحن أهل بيته ان هم لجأوا اليه .

فلما اجتمع آل المهلب بالبصرة ، حملوا عيالاتهم واموالهم في السفن البحرية ، ثم لججوا في البحر ، حتى اذا كانوا بجبال (كرمان)[62] خرجوا من سفنهم، وحملوا عيالاتهم واموالهم على الداواب ، وكان المقدم عليهم المفضل .

وبعث مسلمة بن عبدالملك مدرك بن ضب الكلبي في طلب آل المهلب ، وكان بكرمان فلول كثيرة فاجتمعوا الى المفضل .

وأدرك مدرك المفضل في عقبة على احد الطرق، فعطفوا عليه وقاتلوه . واشتد قتالهم اياه ، فقتل من أصحاب المفضل النعمان بن ابراهيم بن الاشتر النخعي ، ومحمد بن اسحق بن محمد بن الاشعث الكندي .

ورجع ناس من اصحاب المفضل . فطلبوا الامان ، فأومنوا .

ومضى آل المهلب ومن معهم الى قندابيل ، فاراد أهل المهلب دخولها . فمنعهم وداع بن حميد !!

وكان مسلمة بن عبدالملك قد بعث الى مدرك

---

(59) الانبار : مدينة على الفرات غرب بغداد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٤٠/١ ـ ٣٤٢) ، وهي مدينة الفلوجة كما تسمى اليوم ، وقد اطلق اسم الانبار على محافظة الرمادي احدى محافظات العراق التي تتاخم سورية شمالا والاردن غربا .

(60) انظر التفاصيل في الطبرى (٥٩٠/٦ ـ ٥٩٨) وابن الاثير (٧٩/٥ ـ ٨٤) .

(61) قندابيل : مدينة بالسند ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٦٧/٧) .

(62) كرمان : ولاية مشهورة في ايران ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٤١/٧) .

ابن ضب ، فرده وسير في اثر آل المهلب هلال بن احوز التميمي ، فلحقهم بقندابيل .

واحيط بآل المهلب ، فلما راى ذلك مروان ابن المهلب ، اراد أن ينصرف الى النساء فيقتلهن لئلا يؤسرن . فقال له المفضل : « اين تريد ؟! » . قال : « ادخل الى نسائنا فاقتلهن لئلا يصل اليهن هؤلاء الفساق » . فقال : « ويحك ! اتقتل اخواتك ونساء اهل بيتك ! إنا والله ما نخاف عليهن منهم » فرده عن ذلك .

ومشوا بأسيافهم . فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم الا أبا عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل، فانهما نجوا . فلحقا بخاقان ورتبيل .

وكان من الذين قتلوا من المهالبة : المفضل ، وعبدالملك ، وزياد بنو المهلب ، ومعاوية بن يزيد بن المهلب والمنهال بن عيينة بن المهلب ، وعمرو والمغيرة ابنا قبيصة بن المهلب .

وبعث هلال بن احواز بنسائهم ورءوسهم والاسرى الى مسلمة بن عبدالملك بالعراق ، فبعثهم مسلمة الى يزيد بن عبدالملك .

واراد مسلمة أن يبيع الذرية ، لانه اقسم ان يبعهم ، فاشتراهم منه الجراح بن عبدالله الحكمي بمئة الف . وخلى سبيلهم . ولم يأخذ مسلمة من الجراح شيئاً(٦٣) .

الانسان

تولى المفضل خراسان سنة خمس وثمانين الهجرية(٦٤) (٧٠٤ م) للحجاج بن يوسف الثقفي خلفا لاخيه يزيد بن المهلب ، فاقره الحجاج تسعة اشهر ثم عزله(٦٥) .

وما ولاه الحجاج الا ليستخرج يزيد بن المهلب من خراسان خوفا من ان يمتنع عليه(٦٦) . لانه كان يخافه اشد الخوف ويخشاه اشد الخشية ، وقد اذل اهل العراق قاطبة الا آل المهلب ومن معهم في خراسان ، لانهم كانوا رجالا ، والحجاج لا يحلو له ان يعمل بأمرته الا أشباه الرجال من الامعات والمرتزقة والمتبعين لا من المبتدعين(٦٧) .

وما كان المفضل امعة ولا مرتزقا ولا متبعا ولا من اشباه الرجال ، بل كان ذا شخصية ذات وزن واتزان . وليس امعة بل له رايه يقوله للحجاج ولغير الحجاج ، ولا مرتزقا فماله ليس ماله بل للاخرين ، وهو قبل ذلك وبعد ذلك رجل وكفى .

وقد كان حريا بمثل المفضل الذي كان يتمتع بكفايات ادارية وقيادية عالية ، أن يتسنم أهم المناصب الادارية واعلى المناصب القيادية . ولكن الظروف التي مرت به وعاشها حرمته من تلك المناصب . وربما كان حرمانه شخصيا اقل اهمية بكثير من حرمان الدولة امة وحكومة وبلادا من استغلال كفاياته المتميزة لمصلحة الامة والدولة والبلاد .

وقد عزله الحجاج عن خراسان دون أن يخبره بعزله أو بالامير الذي خلفه . فكان المفضل يعرض الجند . وهو يريد أن يغزو اخرون وشومان ، وفجأة ظهر خلفه قتيبة بن مسلم(٦٨) دون سابق اشعارا وانذار . فتخلى المفضل عن منصبه لخلفه فورا ، وعاد ادراجه الى العراق.

وعزل المفضل بهذا الاسلوب ان دل على شيء ، فانما يدل على حقد الحجاج على آل المهلب وحذره الشديد من انتقاضهم عليه .

ولا يستطيع أحد أن يدعي ان الحجاج عزل المفضل عن خراسان لضعف في كفاياته الادارية والقيادية ، فقد اثبت المفضل انه في غاية الكفاية ، لانه انجز خلال المدة القصيرة التي امضاها واليا على خراسان وهي اشهر معدودات ، من لم يستطع غيره انجازه خلال المدة الطويلة التي قضاها واليا على خراسان ، وهي سنوات ، فقد قضى على فتنة ابن خازم الداخلية التي استمرت خمس عشرة سنة ، واستعاد فتح مناطق شاسعة من خراسان ومن بلاد ما وراء النهر ، وأنجز كل ذلك في تسعة اشهر فقط ، ولا يمكن أن ينجز مثل هذا الانجاز في وقت قصير جدا ضعيف الكفاية !

ولم يكد المفضل يستقر في العراق الا وحبسه الحجاج مع يزيد بن المهلب وعبدالملك بن المهلب ، وذلك سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥ م) ، وبقي في السجن مع اخويه حتى سنة تسعين الهجرية (٧٠٨ م) .

وكان حبس الحجاج لبني المهلب في الواقع ، لان الناس قد فتنوا بهم ، واصبحت لهم شعبية كبيرة ومكانة عظيمة عند الناس ، فخاف الحجاج

(٦٣) انظر التفاصيل في الطبري (٥٩٨/٦ ـ ٦٠٤) وابن الاثير (٨٢/٥ ـ ٨٩) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٣٢٤/١) والبلاذري (٦٣٠) .

(٦٤) الطبري (٣٩٣/٦) وابن الاثير (٥٠٢/٤) .

(٦٥) ابن الاثير (٥٠٤/٤) .

(٦٦) الطبري (٣٩٥/٦) .

(٦٧) الطبري (٣٩٧/٦) وابن الاثير (٥٠٤/٤) .

(٦٨) الطبري (٤٢٤/٦) وابن الاثير (٥٢٣/٤) .

ان يقودوا الناس الى الفتنة ، فيزعزعوا مكانة الحجاج وامن الدولة .

اما عذر الحجاج أمام الناس وحجته التي يسوغ بها حبس ابناء المهلب ، انهم تصرفوا بأموال المسلمين لمصلحتهم الشخصية لا لمصلحة المسلمين العامة وبشكل لا يتفق ما امر الله به في اموال المسلمين .

ولكن هل آل المهلب وحدهم تصرفوا مثل هذا التصرف المنحرف ؟ وهل الحجاج تصرف بأموال المسلمين كما كان يتصرف بها ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ؟!

وبدون شك ، فقد اخطأ المفضل واخوته في تصرفهم المنحرف بأموال المسلمين ، ولكن معظم ولاة الامصار في ايامهم كانوا يتصرفون تصرفهم ، والحجاج ايضا كان غير مستقيم في تصرفه بالاموال.

واذا كان يزيد بن المهلب والمفضل قد توليا خراسان فانحرفوا بتصرفهم المالي ، فما بال الحجاج يسجن عبدالملك ايضا ، وليس له في التولية على الامصار نصيب !

ان الحجاج حبس الذين يخافهم من ابناء المهلب ، وترك الذين لا يخافهم احرارا .

وخرج الحجاج الى (رستقاباذ)(٦٩) في حملة تأديبية للاكراد الذين غلبوا على اقليم (فارس) ، وخرج معه يزيد واخوته عبدالملك والمفضل في معسكره يرسفون بأصفادهم ، ومن الواضح ان اخراج ابناء المهلب المسجونين مع الحجاج ، هو لخوف الحجاج فرارهم من السجن ، فاراد ان يكونوا معه في تلك الحملة التأديبية ، ليشرف بنفسه على حراستهم ويحول دون فرارهم من سجنه ما استطاع الى ذلك سبيلا .

وجعل الحجاج على المفضل واخوته كهيئة الخندق ، وجعلهم في فسطاط قريب منه ، ليشدد عليهم رقابته الصارمة ، واخذ يعذبهم عذابا اليما وهم صابرون .

ثم ان الحجاج كف عن تعذيب المفضل واخوته واقبل يستأديهم المال الذي بذمتهم ، وهم يعملون للفرار من سجنهم . فبعثوا الى مروان بن المهلب وهو بالبصرة ، يأمرونه أن يضمر لهم الخيل ؛ ويرى الناس انه انما يريد بيعها ، ويعرضها على البيع ، ويغلى بها لئلا تشترى ، لتكون لهم عدة ان هم قدروا على النجاة بأنفسهم من السجن ؛ ففعل ذلك مروان ، وكان حبيب بن المهلب يعذب بالبصرة ايضا .

وامر يزيد بن المهلب ان يصنع للحرس طعام كثير وأمر لهم بشراب ، فأكلوا وسقوا ، فكانوا متشاغلين به .

وخرج يزيد بن المهلب من السجن متنكرا ، وخرج المفضل في اثره ، فلم يفطن له .

وجاءوا الى سفنهم وقد هيئوها في (البطائح)(٧٠) وبينهم وبين البصرة ثمانية عشر فرسخا ، فلما انتهوا الى السفن ابطأ عليهم عبدالملك بن المهلب وشغل عنهم . فقال يزيد للمفضل : « اركب بنا فانه لاحق » ، فقال المفضل — وعبدالملك اخوه لامه — وهي بهلة الهندية : « لا والله ، لا ابرح حتى يجيء ، ولو رجعت الى السجن » .

واقاما حتى جاءهم عبدالملك ، فركبوا عند ذلك السفن ، فساروا ليلتهم حتى اصبحوا .

ولما اصبح الصبح ، اكتشف الحرس ان المفضل واخوته قد هربوا من السجن ، فرفع ذلك الى الحجاج .

وفزع الحجاج فزعا شديدا لهرب ابناء المهلب من السجن ، وهو الذي بالغ كثيرا في تشديد الحراسة عليهم ، وذهب وهمه أنهم ذهبوا قبل خراسان ، فبعث البريد الى قتيبة بن مسلم يحذره قدومهم ، ويأمره ان يستعد لهم ، وبعث الى الوليد ابن عبدالملك كتابا يخبره فيه بهربهم ، وبعث الى امراء الثغور والكور ان يرصدوهم ويستعدوا لهم .

ولما دنا أبناء المهلب من (موقوع)(٧١) ، استقبلته الخيل قد هيئت لهم ، فخرجوا عليها ومعهم دليل من بني كلب ، فاخذ بهم على (السماوة)(٧٢) .

وجاء من يخبر الحجاج بعد يومين من هرب ابناء المهلب من السجن ، بانهم اخذو طريق الشام على طريق السماوة ، فبعث الى الوليد بن عبدالملك يعلمه .

ومضى ابناء المهلب ، حتى قدموا فلسطين ،

---

(٦٩) رستقاباد : موقع من ارض (دستوا) ، وجاءت في معجم البلدان (٢٤٩/٤) : رستقباذ ، ودستوا : بلدة بفارس، انظر معجم البلدان (٥٩/٤ — ٦٠) .

(٧٠) البطائح : ارض واسعة بين واسط والبصرة ، وكانت قديما قرى متصلة وارضا عامرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢١٥/٢) و (٢٢٢/٢) .

(٧١) موقوع : ماء بناحية البصرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٠٠/٨) .

(٧٢) السماوة : ماء بالبادية ، وبادية السماوة : هي البادية التي بين الكوفة والشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٢٠/٥) .

فنزلوا على وهيب بن عبدالرحمن الازدي ــ وكان كريما على سليمان بن عبدالملك الذي كان يومذاك وليا للعهد ــ وانزلوا بعض ثقلهم واهلهم على سفيان ابن سليمان الازدي .

وجاء وهيب بن عبدالرحن الازدي حتى دخل على سليمان بن عبدالملك ، فقال : « هذا يزيد بن المهلب واخوته في منزلي . وقد اتوك هرابا من الحجاج متعوذين بك » ، فقال : « فأتني بهم ، فهم آمنون لا يوصل اليهم ابدا وانا حي » ، فجاء بهم حتى ادخلهم عليه ، فكانوا في مكان آمن .

وكان الوليد قد حذرهم وظن انهم يأتون خراسان للفتنة بها ، فلما علم انهم عند أخيه سليمان سكن بعض ما به .

وبذل سليمان بن عبدالملك قصارى جهده من اجل اصدار الوليد بن عبدالملك العفو عن ابناء المهلب فتكلل جهده المخلص المتواصل بعد مشقة بالغة بالنجاح[٧٣] .

ان قصة هرب ابناء المهلب من سجن الحجاج، ملحمة من الملاحم البطولية التي ان دلت على شيء ، فانما تدل على شجاعتهم الفائقة وتغلغل روح الاقدام فيهم .

وهذه الملحمة قصة واقعية تمثل كثيرا من المزايا العربية العريقة : الاقدام ، والجراة ، والمغامرة ، واقتحام الصحراء ، والوفاء ، والدفاع عن المستجير ، وتقاليد الجار ، والكرم ، والجود ، والمروءة .

جـ ــ ومات الوليد بن عبدالملك وتولى الخلافة من بعده سليمان بن عبدالملك ، فقرب آل المهلب واعتبرهم من انصاره المقربين . واغدق عليهم المال بغير حدود .

والذي يبدو ان سليمان استأثر بالمفضل فجعله مستشاره الخاص ، فبقى معه حتى اواخر أيامه ، وروى للتاريخ خلجات نفسه في ايامه الاخيرة فقال : « دخلت على سليمان بـ (دابق)[٧٤] يوم جمعة ، فدعا بثياب فلبسها ، فلم تعجبه ، فدعا بغيرها بثياب خضر سوسية ، بعث بها يزيد بن المهلب ، فلبسها واعتم وقال : « يا ابن المهلب ! اعجبتك ؟ قلت : نعم ، فحسر عن ذراعيه ثم قال : أنا الملك الفتى ! ثم صلى الجمعة ، ثم لم يجمع بعدها ، وكتب وصيته . ودعا ابن ابى نعيم صاحب الخاتم . فختمه »[٧٥] .

ولا نعرف بالضبط العمل الذي كان المفضل يشغله بجوار سليمان بن عبدالملك ، ولكن يظهر انه كان مقربا اليه كثيرا . يدخل عليه بالساعة التي يريدها في المكان الذي يريده ، ويشهد تفاصيل حياته الخاصة بما فيها ارتداء ملابسه وتغييرها .

ومما يدل على صلته الوثيقة بالخليفة سليمان ابن عبدالملك ان سليمان حبس خالد بن عبدالله القسري بمكة المكرمة ، فلم يزل خالد محبوسا حتى حج سليمان ، فكلمه فيه المفضل ، فقال سليمان : « لاطت بك الرحم ابا عثمان . ان خالدا جرعني غيظا » ، قال : « يا امير المؤمنين ! هبني ما كان من ذنبه » ، قال : « قد فعلت ، ولابد أن يمشي الى الشام راجلا » . فمشى خالد الى الشام راجلا[٧٧] .

ولم يكن المفضل ليقدم على التشفع لخالد الذي اغاظ الخليفة . لو لم يكن وثيق الصلة بأمير المؤمنين ، ولم يكن أمير المؤمنين ليشفعه لو لم يكن في قلبه مكان كبير .

لقد كان المفضل جوادا كريما مضيافا : شهما غيورا ذا مروءة ونخوة ، ولم يكن له بيت مال ، لانه كان يعطي الناس كلما جاءه شيء ، وان غنم شيئا قسمه بينهم ، فقال كعب الاشقري يمدحه :

ترى ذا الغنى والفقر من كل معشر
عصائب شتى ينتوون المفضلا
فمن زائر يرجو فواضل سيبه
وآخر يقضى حاجة قد ترحلا
اذا ما انتوينا غير ارضك لم نجد
بها منتوى خيرا ولا متعللا
اذا ما عددنا الاكرمين ذوي النهى
وقد قدموا من صالح كنت اولا
لعمري لقد صال المفضل صولة
اباحت بشومان[٧٨] المناهل والكلا
ويوم ابن عباس[٧٩] تناولت مثلها
فكانت لنا بين الفريقين فيصلا

(٧٣) انظر التفاصيل في الطبري (٤٤٨/٦ ــ ٤٥٣) وابن الاثير (٥٤٥/٤ ــ ٥٤٧) ، وانظر وفيات الاعيان (٣٢١/٥ ــ ٣٣٦) .

(٧٤) دابق : قرية قرب حلب من اعمال عزاز ، بينها وبين حلب اربعة فراسخ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٤ ــ ٤) .

(٧٥) انظر الطبري (٥٤٦/٦ ــ ٥٤٧) .

(٧٦) لاط الشيء بالشيء : لصق به . ولاط الشيء بقلبي : لصق به واحببته .

(٧٧) العقد الفريد (٤٢٩/٤) .

(٧٨) يريد غزوة استعادة فتح شومان .

(٧٩) يريد عبدالرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب الهاشمي .

صفت لك أخلاق المهلب كلها
وسربلت من مسعاته ما تسربلا
أبوك الذي لم يسع ساع كسعيه
فأورث مجدا لم يكن متنحلا[٨٠]

ومات سليمان بن عبدالملك سنة تسع وتسعين الهجرية[٨١] (٧١٧ م) ، فخلفه عمر بن عبدالعزيز الذي حبس يزيد بن المهلب[٨٢] ، فلم تقم قائمة لابناء المهلب بعد سليمان .

وتوفي عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه سنة احدى ومئة الهجرية[٨٣] (٧١٩ م) ، وتولى بعده يزيد بن عبدالملك ، فثار يزيد بن المهلب على الدولة وخلع يزيد ، فأخفقت ثورة المهالبة ، وقتل المفضل بمدينة قندابيل سنة اثنتين ومئة الهجرية (٧٢٠م) كما ذكرنا سابقا .

فأذا كان المفضل ولد سنة سبع وخمسين الهجرية (٦٩٦ م) ، وقتل سنة اثنتين ومئة الهجرية (٧٢٠ م) ، فقد عاش خمسا واربعين سنة قمرية واربعا واربعين سنة شمسية .

ولما قتل المفضل ، دخل ثابت قطنة على هند بنت المهلب ، والناس حولها جلوس يعزونها ، فأنشدها :

يا هند كيف بنصب بات يبكيني
وعائر في سواد الليل يوذيني[٨٤]
كأن ليلي والاصداء هاجدة
ليل السليم ، وأعيا من يدوايني[٨٥]
لماضي الدهر من قوسي وعذرني
شيبي وقاسيت امر الغلظ واللين[٨٦]
اذا ذكرت أبا عثمان أرقني
هم اذا عرس السارون يشجيني[٨٧]

(٨٠) الطبري (٢٩٧/٦ - ٢٩٨) .
(٨١) الطبري (٦/ ٥٤٦) .
(٨٢) الطبري (٥٥٦/٦) .
(٨٣) الطبري (٥٦٥/٦) .
(٨٤) النصب بالفتح والضم وبضمتين : الداء والبلاء . والعائر : كل ما أعل العين ، والرمد ، والقذى كالعوار .
(٨٥) الاصداء : جمع صدى ، وهو الصوت . والهجود : النوم . والسليم : الملدوغ . واعيا : أعجز .
(٨٦) عذرني : من عذر الدار : طمس آثارها ، والمعنى : هدني وهدمني . والغلظ بفتح اللام ، وخفف هنا بتسكينها لضرورة الشعر .
(٨٧) عرس القوم : نزلوا في آخر الليل للاستراحة . سرى : سار ليلا . شجاه واشجاه : احزنه .

كان المفضل عزا في ذوي يمن
وعصمة وثمالا للمساكين[٨٨]
ما زلت بعدك في هم تجيش به
نفسي وفي نصب قد كاد يبليني[٨٩]
اني تذكرت قتلى لو شهدتهم
في حومة الموت لم يصلوا بها دوني[٩٠]
لا خير في العيش ان لم أجن بعدهم
حربا تبيء بهم قتلى فيشفوني[٩١]

فقالت هند : « إجلس يا ثابت . فقد قضيت الحق ، وما من المرثية بد ، وكم من ميتة ميت اشرف من حياة حي ، وليست المصيبة في قتل من استشهد ذابا عن دينه ، مطيعا لربه ، وانما المصيبة فيمن قلت بصيرته ، وخمل ذكره بعد موته ، وارجو الا يكون المفضل عند الله خاملا » ، فيقال : انه ما غرى يومئذ بأحسن من كلامها[٩٢] .

وكان له من الاولاد : عثمان ، وحيان ، وغسان ، وحاجب ، وغيرهم[٩٣] .

اما اخوته . فقد ولد المهلب نحو ثلاثمائة ولد ، اعقب منهم تسعة عشر ، وأعقابهم بالبصرة وبغيرها ، وهم : المغيرة ، ويزيد ، ومروان ، ومعاوية . وزياد ، وعبدالملك ، وحبيب ، ومحمد وقبيصة ، والمدرك ، وابو عيينة ، وعبدالعزيز ، وعبدالله ، وسعيد ، وشبيب ، وعمرو ، وجعفر ، والحجاج[٩٤] .

وهكذا انتهت حياة احد قادة العرب المسلمين، ماسوفا عليه من ابناء عصره كافة ، دون ان تسنح له الظروف التي أحاطت به ان يخدم الدولة والامة والبلاد خدمة تناسب كفاياته العالية وقابلياته الفذة .

القائد

كان المفضل كما وصفه أحدهم : « ... فما رأيت رجلا من العرب مثل منزلته ، كان اغشى للناس بنفسه . ولا أضرب بسيفه ، ولا أحسن تعبئة لاصحابه منه »[٩٥] .

(٨٨) الثمال : الغياث الذي يقوم بامر قومه .
(٨٩) جاشت النفس : ارتفعت من حزن أو فزع .
(٩٠) صلى النار وبها : قاسى حرها .
(٩١) تبيء : اباء القاتل بالقتيل : قتله .
(٩٢) الاغاني (٢٧٥/١٤ - ٢٧٦) .
(٩٣) جمهرة انساب العرب (٣٦٩) .
(٩٤) جمهرة انساب العرب (٣٦٨) .
(٩٥) الطبري (٥٩٨/٦) وانظر ابن الاثير (٨٤/٥) .

ومن النادر ان نجد في المصادر التاريخية العربية وصفا واضحا دقيقا لقائد عربي مسلم مثل الوصف للمفضل .

فهو ينص على مهارته الفذة في استعمال سلاحه استعمالا ناجحا يؤدي الى انتصاره على خصمه في مجال القتال الفردي كالمبارزة ، وفي مجال القتال الجماعي في الاشتباك .

وهو ينص على انه لا يكتفي باصدار الاوامر لرجاله ، بل يباشر القتال بنفسه كأي رجل من رجاله الذين يقاتلون في الخطوط الامامية القصوى ويكون بتماس شديد بالعدو . وإنه باعتباره القائد ويمارس القتال في الصفوف الامامية . فانه يقود رجاله من الامام ، يقول لهم ، « اتبعوني » ، ويرفض ان يبقى في الخلف ، يقول لهم : « تقدموا » ، ثم يقبع في مقره المريح الامين .

والقائد الذي يباشر القتال بنفسه ، ويقود رجاله من الامام ، يصبح مثالا شخصيا لاصحابه وقدوة حسنة لهم ، مما يؤدي الى رفع معنوياتهم، وقلما يهزم جيش يتحلى بالمعنويات العالية .

وهو ينص على انه : « لا احسن تعبئة لاصحابه منه » ، في اعداد خطة تعبوية متميزة ، وتوزيع اصحابه على المواضع من جهة ، وعلى الاهداف المناسبة لهم من جهة اخرى ، واخراج خطته من مجال الاعداد الى مجال التنفيذ ، ومن نطاق الفكر النظري الى نطاق التطبيق العملي .

لقد كان المفضل على الميسرة ، وكان حبيب على الميمنة . وكان يزيد في القلب وقائدا عاما .

وانهارت الميمنة وقتل حبيب . وانهار القلب بعد ذلك وقتل يزيد ، وظلت الميسرة بقيادة المفضل متماسكة ثابتة تصد جيش الدولة ، وتقوم عليه بالهجوم المقابل ، وتصد هجماته المقابلة ، وتكبده خسائر فادحة بالارواح ، وهذا دليل ناصع على كفايته القيادية ؛ لانه يقاتل بنفسه كأي رجل من رجاله ، ويتغلغل بالعمق في صفوف عدوه ، ويحسن تعبية رجاله ، ويقودهم من الامام ، دون أن يفرط بواجباته القيادية .

والقائد الذي يحسن تعبئة رجاله ، لابد ان يتقن معرفة مبادىء الحرب نظريا ، ويتقن تطبيقها عمليا ، فما كل من يعرف مبادىء الحرب النظرية يتقن وضعها في اطار التطبيق العملي ، وقد يستطيع غير العسكري من المدنيين ان يحفظ تلك المبادىء عن ظهر قلب كما هي مسطرة في الكتب العسكرية ، ولكنه يعجز عن تطبيق حرف واحد من حروفها ، وما اكثر الذين ينتقدون اعظم القادة انتقادا نظريا بالكلام او على الورق ، ولكنهم لا يستطيعون قيادة جندي واحد قيادة عملية على الارض او في المعركة !

ولعل اهم اعمال المفضل القيادية ، هو القضاء على فتنة موسى بن عبدالله بن حازم في بلاد ما وراء النهر التي استمرت خمس عشرة سنة بدون توقف فلم يقدم على مهمة القضاء على تلك الفتنة من الولاة الذين تولوا خراسان منذ بداتها ، حتى جاء المفضل فبادر الى القضاء عليها وحده دون سواه .

وهذا الانجاز الحيوي ، يدل على انه كان يحسن اختيار المقصد وادامته ، وهو اول مبدأ من مبادىء الحرب العشرة .

وكان يطبق مبدأ : التعرض ، وكانت كل معاركه التي خاضها في المجالين الخارجي والداخلي معارك تعرضية ، ولم يعرف عنه انه تخلى عن هذا المبدا في حياته القيادية كلها .

وكان يطبق مبدا : حشد القوة ، فقد كانت القطعات العسكرية التي تولى قيادتها حسنة الحشد كافية للنهوض بواجبها ، قادرة على تحقيق هدفها .

وكان يطبق مبدأ : الاقتصاد في المجهود . فما عرف بالافراط ولا بالتفريط ، بل كان وسطا غير مسرف ولا مقتر ، يبتغي بين ذلك سبيلا .

وكان يطبق مبدأ : الامن ، فكان المسئول الاول عن تطبيق هذا المبدأ حين عمل بامرة اخيه يزيد بن المهلب في الاقتتال بينه وبين الهاشمي ، حيث كان على خيل يزيد ، وهي التي تنفذ معظم خطة الامن . وحيث كان على الميسرة. وهي المسئولة عن أمن الجناح الايسر من جيش يزيد في الاقتتال بينه وبين جيش الدولة بقيادة مسلمة بن عبدالملك .

ولما عمل قائدا عاما في استعادة الفتح في خراسان وبلاد ما وراء النهر ، اتخذ التدابير الامنية المحكمة التي حرمت عدوه من مباغتة قواته، ولم يسجل التاريخ عن المفضل موقفا واحدا تخلى فيه عن تطبيق مبدأ : الامن ، فهو بالاضافة الى اتخاذه التدابير الامنية المعروفة : المقدمة ، والميمنة والميسرة ، والمؤخرة ، فانه كان يتحلى بمزية الحذر واليقظة ، لا تغيب عنه حركة من حركات عدوه في حالتي الحرب والسلام .

وكان يطبق مبدأ : المرونة ، بكفاية عالية ، فقد كان يعد الخطة المناسبة ، ولكنه كان لا يصر على تنفيذها اذا تغيرت ظروف تطبيقها ، فكان يدخل عليها التعديلات لتلائم الظروف الجديدة .

ولعل وجوده في الصفوف الامامية في تماس شديد بالعدو . يعينـه على ادخـال التعديلات الضرورية على خطته الاصلية في الوقت المناسب والمكان المناسب ، دون ان يضيع الوقت الثمين جدا في الحرب انتظارا لوصول الموقف الراهن عن العدو اليـه .

واذا كان المفضل مرنا في خططه ، فهو غـير مرن في مصيره الشخصي ، فاما أن ينتصر ، واما ان يقتل ، ولا مجال للهرب من المعركة في تصرفه ولا في مفردات معجمه .

فقد اتاه شقيقه عبدالملك بن المهلب بعد مقتل اخيهما يزيد بن المهلب في معركة (العقر) ، ولم يكن المفضل يعلم بما حدث ليزيد ، لانـه كان يصاول جيش الدولة مصاولة الابطال ، فكره عبدالملك ان يخبره بقتل يزيد فيستقتل ، فقال له : « ان الامير انحدر الى (واسط) » ، فلما علم بقتل يزيد حلف أنه لا يكلم عبدالملك ابدا ، فما كلمه حتى قتـل بقنداببل ، وكان لا ينفك يردد : « فضحني عبدالملك ما عذري اذا رآني الناس . فقالوا : شيخ اعـور مهزوم ! الا صدقتني فقتلت » ، ثم ينوح مرددا :

ولا خير في طعن الصناديد بالقنا

ولا في لقاء الحرب بعد يزيد[٩٦]

وقد كانت معركة قندابيل يائسة لا امل فيها ، لان من بقى معه من الرجال كانوا قلة قليلة من آل بيته ومواليه ، وقد خانه أقـرب المقربين اليـه فانضموا الى صفوف جيش الدولة طلبا للحياة ، فثبت ثبات الراسيات لا يتزعزع ولا يرضـى الا بالموت ، وقاتل قتال الابطال حتى قتل ، وكـان بامكانه الانحياز الى بلد قريب لينجو بمن معـه وبنفسه ، ولكن الموت بالنسبة اليه أخف وطأة من الانحياز .

وكان يطبق مبدأ : التعاون ، فقد عاون أخاه يزيد بروحه . وربط مصيره بمصيره برباط حاسم ، كما كان تعاونه وثيقا بين قواته وقوات اخوته في الحرب وقبلها وبعدها ، وما تخلف عن اخوته ابدا في الملمات ، وختم حياته بالتضحية بروحه دفاعـا عن يزيد وآل المهلب ، وهكذا يكون التعاون الصادق المتين .

وكان يطبق مبدأ : ادامة المعنويات . والواقع أنه كان كتلة حية من المعنويات العالية ، وما كان في تقدمه الصفوف واستئثاره بالاخطار دون رجالـه وايثارهم بالامن ، الا من الجرعات المعنوية التي ترفع المعنويات وتبدلها من حال الى حال .

وحسب الرجال ان يقاتلوا تحت راية قائـد بطل شجاع . لتصبح معنويات في عنان السماء .

وكان يطبق مبدا : الامور الادارية ، فما كان للمفضل بيت مال يكدس به الاموال ، ولا كان من الذين يجمعون المال ، وكل ما يصيبه من الغنائـم والاموال يقسمه على اصحابه[٩٧] ، والمال عصب الحرب ، وهو الذي يؤمن القضايا الادارية للرجال.

ولا اعرف قائدا في عصر المفضـل بالذات ، ليس له بيت مال ، يقسم كل ما يصيبه من الغنائم وغيرها على اصحابه فورا ، ولا يحتفظ بدرهم ولا دينار .

وتقسيم الاموال ، دون ابقـاء شيء منهـا للمستقبل وادخارها لنوائب الدهر ، سـلاح ذو حدين ، فأن افاد الناس ، فأنه يضر بالمصلحة العامة للمسلمين ، فلابد من الادخار لمواجهة أحداث الزمان

ولكن المفضل لم يطبق مبدا : المباغتة ، وهي اهم مباديء الحرب على الاطلاق ، ولعل الظروف لم تسمح له بفرصة سانحة يستغلها في تطبيق هذا المبدا الحيوي ، فما تولى خراسـان غـير تسـعة اشهر ، وما اقصرها من مدة ، وما اعظم ما انجزه خلالها من اعمال .

وكان المفضل ذكيا المعي الذكاء ، وكانـت تجربته في القتال طويلة ، لذلك كانت قراراته سليمة صائبة سريعة .

وكانت أرادته قوية ، اذا اقتنع بخطة نفذها ، يتمتع بمزية سبق النظر ، فيتوقع ما يحـدث ، ويصدق توقعه .

وكانت له نفسية رصينة لا تتبدل في حالتي النصر والهزيمة ، فقد بقى متواضعا حين كان في أوجه مقربا من سليمان بن عبدالملك ، وبقى عزيزا حين امسى في حضيضه يقاتل عن شرفه وأحسابه وهو رجل بلا غد .

وكان يثق برجاله ويثقون به . وحسبه أن يكون أشجعهم واجودهم واكثرهم احسانا . وكان يحب رجاله ويحبونه ، فهو يدافع عنهم ويتفقدهم ويرعاهم ويلبي طلباتهم .

وكان يتمتع بقابلية بدنية قويـة ، مارس

(٩٦) ابن الاثير (٥/٨٤) .

(٩٧) الطبري (٦/٢٩٧) .

الحرب وهو في ريعان الشباب ، ومات وهو في اول كهولته المتكاملة ، وفي اوج قوته البدنية .

له ماض ناصع مجيد ، وله حاضر مشرف نظيف .

وقد تيسر له الطبع الموهوب شجاعة واقداما وذكاء وقوة بدنية ، وتيسر له العلم المكتسب ، حتى اصبح اول اقرانه استعمالا لسلاحة وأحسنهم استخداما لتعبئة رجاله ، وتيسرت له التجربة العملية الطويلة .

وقد كان يؤثر ميدان القتال على القصور ، ويفضل أن يكون غازيا لا جابيا ، وكان لا يكل ولا يمل من العمل الدائب في المجالين الاداري والقيادي.

ويبدو انه لم يسمح لنفسه بالراحة في مدة ولايته على خراسان ، حتى قدم خلفه قتيبة بن مسلم فوجده مشغولا بعرض الجند للغزاة[٩٨] استعدادا لفتح جديد او استعادة فتح قديم .

لقد اتعب المفضل نفسه ، واتعب الذين يعملون بأمرته ، وكان لا ينام ولا ينيم ، ولا يستريح ولا يريح ، كأنه منذر جيش ، يقول : صبحكم مساكم ، كل همة ان يفتح ويستعيد الفتح ، ويقضي على الفتنة وعلى أسبابها ، ويسهر على مصالح المسلمين مقاتلين وقاعدين .

انه كان قائدا متميزا ، يعمل للمصلحة العامة، وينسى مصالحه الشخصية من اجل المصلحة العامة ، ولم يستطع ان يخدم أمته وعقيدته وبلاده كما يحب ويحب لـه المقدرون لكفاياته ، للظروف التي أحاطت به ، فأبعدته عن السلطة ، وحرمت الدولة من كفاياته المتميزة العالية .

لقد كان المفضل قائدا متميزا .

---

(٩٨) ابن الاثير (٥٢٣/٤) .

المفضل فى التاريخ

يذكر المؤرخون للمفضل بانه استعاد فتح منطقة باذغيس من خراسان واخرون وشومان من بلاد ما وراء النهر .

ويذكرون له ، انه كان له اثر بارز في اخماد الفتن الداخلية واعادة الاستقرار الى مناطق الحدود الشرقية للدولة .

ويذكر له التاريخ ، انه مهد الامور لقتيبة بن مسلم الباهلي ، فاستطاع فتح ما فتح من بلاد ما وراء النهر حتى حدود الصين ، فكان قتيبة حسنة من حسنات المفضل .

ويذكر له ، انه لم يكن أضرب بسيفه من العرب ولا أحسن تعبية للحرب ، ولا اغشى للحرب منه .

ويذكر له ، انه كان لا يكل ولا يمل ، ولا ينام ولا ينيم ، ولا يريح ولا يستريح ، في خدمته العامة، فكانت راحته في تعبه ، وتعبه في راحته ، وكانت همته منصرفة للمصلحة العامة لا للمصلحة الشخصية .

ويذكر له ، انه انجز في السلم والحرب خلال تسعة اشهر من حكمه القصير ، ما لم ينجزه غيره في الامراء في بضع سنين .

ويذكر له ، أن الظروف القاسية التي احاطت به ، حرمت أمته وبلاده من كفاياته العالية وقابلياته الفذة ، فلم تستفد منه كما ينبغي .

ويذكر له ، انه كان قائدا يقود رجاله من الامام دون ان يفرط بواجباته القيادية ، ويمارس القتال في الخطوط الامامية القصوى ، فلا يكون احد من رجاله أقرب الى العدو منه .

ويذكر له ، أنه كان قائدا متميزا ، واداريا قديرا .

يرحمه الله جزاء ما قدم لامته وبلاده ، وجعله قدوة للعرب والمسلمين قائدا واداريا ، وانسانا ومسئولا .

المحتوى

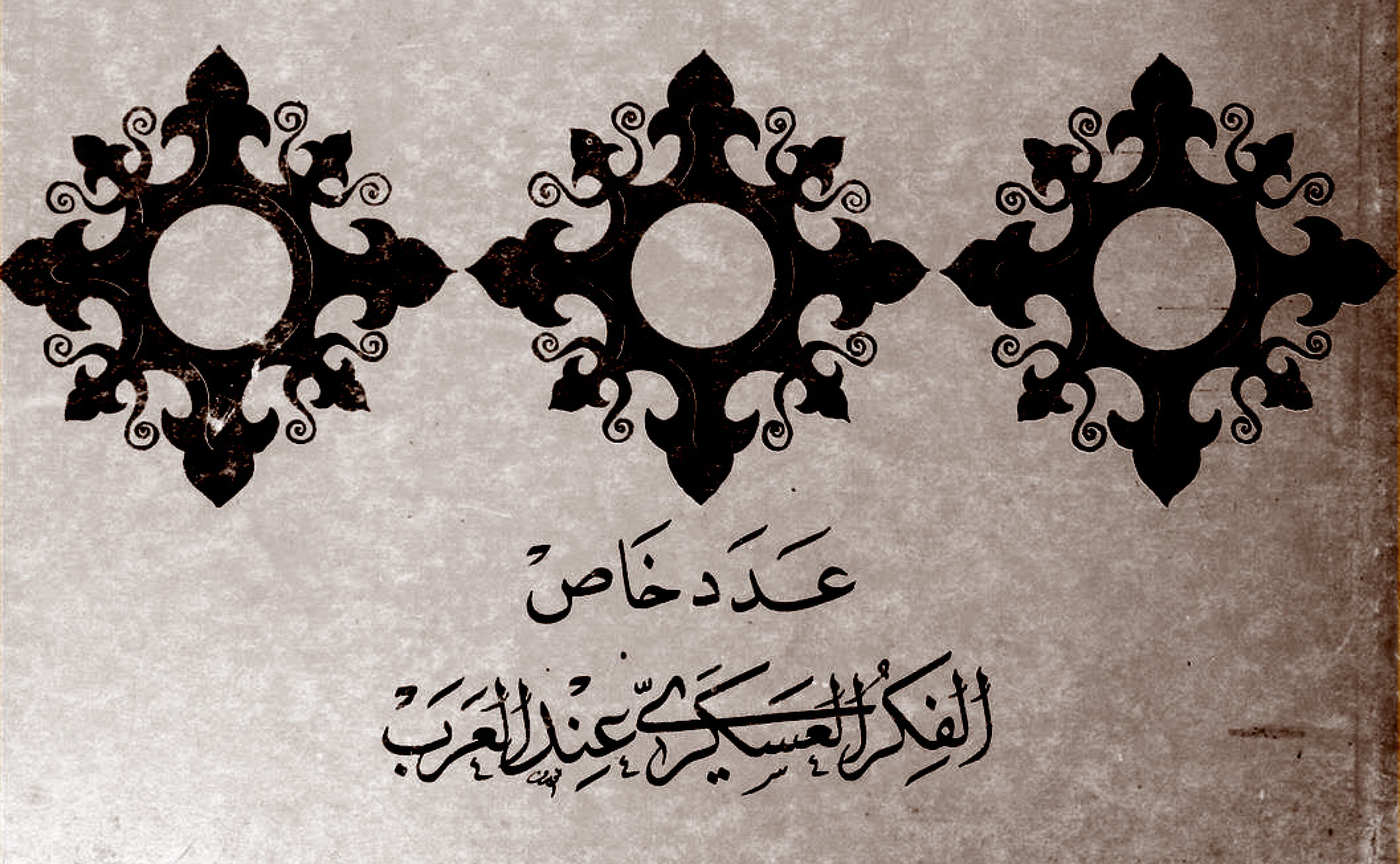
المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دائرة الشؤون الثقافية والنشر ـ
الجمهورية العراقية

٤

المجلد الثاني عشر ـ العدد الرابع ـ ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٣ م



عدد خاص

الفكر العسكري عند العرب